الحياة الطيّبة
السنة ٢٠
العدد ٣٤
صيف ٢٠١٦ م
أبحاث ودراسات

البُعد الوجوديّ في زيارة الإمام المعصوم عليه السلام - زيارة الإمام الحسين عليه السلام أنموذجًا-

الشيخ لبنان حسين الزين[1]

خلاصة المقالة:

تتناول هذه المقالة البُعد الوجوديّ في زيارة الإمام المعصوم عليه السلام؛ لجهة الكشف عن الحقيقة الوجوديّة الكامنة في فعل الزيارة بما هو فعل زمانيّ ومكانيّ له صورته الظاهريّة من أنماط قوليّة وممارسات عمليّة تبلورت في حضور الزائر في الأضرحة والمشاهد المقدّسة، ولا سيّما قبور الأنبياء والمرسلين والأئمّة عليهم السلام، وحقيقته الباطنيّة الملكوتيّة؛ بما هو شعيرة عباديّة تشريعيّة تتّكىء على حقيقة تكوينيّة وجوديّة قائمة على أساس الاستمداد التكويني الوجوديّ للزائر من الإمام المَزُور عليه السلام المتحقّق بالهداية الذاتيّة الباطنيّة الملكوتيّة للموجودات إلى الله، وبحقيقة العبوديّة التي ينشدها الزائر، وينجذب إليها بتكوينه الفطريّ والوجوديّ.

وفي هذا السياق، جرى تناول خصوص فعل زيارة الإمام الحسين عليه السلام؛ بما يشتمل عليه من نمط قوليّ وممارسة عمليّة، وبوصفها شعيرة دينيّة لها خصوصيّتها في الروايات الكثيرة الواردة عن النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام، في محاولة لمقاربة حقيقة الارتباط الوجوديّ بين الزائر والإمام المَزُور عليه السلام في فعل زيارة الإمام الحسين عليه السلام.

(1) باحث في الفكر الإسلامي، من لبنان.

مصطلحات مفتاحيّة:

البُعد الوجودي، الإمام المعصوم عليه السلام، الإمام الحسين عليه السلام، الحقيقة الوجوديّة، الإنسان الكامل، الزائر، المزور، فعل الزيارة، البُعد التشريعي، البُعد التكويني، البُعد الفطري، الاستمداد الوجودي، الهداية الملكوتيّة، الهداية الذاتيّة، ...

مقدّمة:

تشتمل الزيارة[1]، بوصفها نمطًا قوليًّا وممارسة عمليّة تبلورت في فعل حضور الزائر في الأضرحة والمشاهد المقدّسة، ولا سيّما قبور الأنبياء والمرسلين والأئمّة عليهم السلام، على أبعاد وجوديّة وتربويّة وتثويريّة يتغيّاها الدين الإسلاميّ. ويتجلّى ذلك في ما تحمله من دلالات معنويّة عالية وسامية في بيان نهج الحقّ ومواجهته للباطل في كلّ زمان ومكان، وما تمدّ به الزائر من قوّة ودافعيّة وجوديّة لمواصلة هذا النهج والسير في طريق العبوديّة والتحقّق بها اختيارًا في ظرف عالم الملك والشهادة؛ بالتزام حقّ التقوى وموافقة العبوديّة المتحقّقة في التكوين الفطريّ والوجوديّ للإنسان.

ومشروعيّة هذا الفعل مأخوذة من السنّة القوليّة والعمليّة للنبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، حيث روي أنّه: «**زَارَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله قَبْرَ أُمِّه، فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ..**»[2]؛ وعنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «... **فَزُورُوا القُبُورَ، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**»[3]، وعن الإمام الرضا عليه السلام: «**لكلّ إمام عهدٌ في عنق أوليائه..، وإنّ من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم وتصديقًا بما رغبوا فيه، كان أئمّتُهم شفعاءَهم يوم القيامة**»[4].

---

(1) «الزاء والواو والراء أصل واحد يدلّ على الميل والعدول» (ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمّد هارون، لا.ط، قم المقدّسة، مكتب الإعلام الإسلاميّ، 104هـ.ق، ج3، مادّة «زور»، ص36). «وإطلاق الزيارة بالنسبة إلى لقاء الأولياء والأعاظم: من جهة أنّ هذا العمل انحراف عن الجريان المادّيّ وعدول عن العالم الطبيعيّ، وتوجّه إلى الروحانيّة مع حفظ الجسمانيّة وفي محيطها» (المصطفوي، حسن: التحقيق في كلمات القرآن، ط1، طهران، مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، 1417هـ.ق، ج4، 365-366).

(2) النيسابوري، مسلم: صحيح مسلم، لا.ط، بيروت، دار الفكر، لا.ت، ج3، كتاب الجنائز، باب استئذان النبيّ صلى الله عليه وآله ربّه عزّ وجلّ في زيارة قبر أمّه، ص65.

(3) م.ن.

(4) الكليني، محمّد بن يعقوب: الكافي، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفّاري، ط3، طهران، دار الكتب الإسلاميّة؛ مطبعة حيدري، 1367هـ.ش، ج4، باب (بدون عنوان) من أبواب الزيارات، ح2، ص567.

ولعلّ التشجيع الوارد في الروايات على زيارة قبور الأئمّة عليهم السلام وشدّ الرحال إليهم؛ إنّما مردّه إلى تشرّب الخطّ العمليّ للعقيدة الإسلاميّة والتحقّق به وجوديًّا، كما تحقّقت به هذه النماذج الصالحة، والاقتداء بسيرتهم العطرة التي قدّمت الإسلام في أبهى صوره ومظاهره، والتزمت بأصوله وقيمه وتشريعاته أتمّ التزام وأكمله، وجسّدت حقّ العبوديّة، فأضحت منارات مقتدائيّة تتجاوز أُطُر الزمان والمكان، لتلهم المسترشدين والسالكين في طريق الحقّ.

ففي فعل الزيارة نجد استحضارًا مباشرًا للمَزورين، ولسيرتهم الإيمانيّة القويمة التي تستحقّ الثناء؛ لأنّها نالت الاصطفاء الإلهيّ بإخلاصها ورفعها لواء التوحيد، وهداية الناس إلى معالم الصراط المستقيم، والأخذ بيدهم في سلوكه؛ ليعبّر الزائر بذلك عن ولائه التكويني الفطري والوجوديّ لهم، بما يحملون من تجربة تامّة وكاملة للدين، وما يمثّلون من نهج الحقّ، ويعقد العزم على مواصلة نهجهم، والسير على هداهم، واللحوق بهم، والاستمداد منهم في سَيره التكوينيّ الفطريّ والوجوديّ إلى مقام القرب الإلهيّ.

ومن هذا المنطلق، كان لا بدّ من الوقوف عند خصوص الأبعاد الوجوديّة الكامنة في فعل زيارة الإمام المعصوم عليه السلام، وآثارها الوجوديّة على الزائر، وطبيعة العلاقة الوجوديّة التي تربط الزائر بالإمام المـَزُور عليه السلام، ومقاربتها من خلال زيارة الإمام الحسين عليه السلام. وهو ما سوف يجري بحثه في هذه المقالة القصيرة، مع ترك بحث الأبعاد التربويّة والتثويريّة للزيارة -على أهمّيّتها- رعاية للمختار من عنوان المقالة.

أوّلًا: الحقيقة الوجوديّة للإمام المَزور عليه السلام:

إنّ فيض عوالم الخَلْق من لدنه -تعالى- قد تنزّل بحسب الأشرفيّة في رتبة الوجود إلى العوالم الكلّيّة الثلاثة: عالم التجرّد التامّ العقليّ؛ وهو مجرّد تامّ ذاتًا وفعلًا عن المادّة وآثارها، وعالم المثال؛ وهو مجرّد عن

المادّة دون آثارها، وعالم المادّة والطبيعة المتمحّض في القوّة والاستعداد. ولمـّا كان الوجود بحقيقته الأصيلة حقيقة مشكّكة ذات مراتب مختلفة في الشدّة والضعف والشرف والخسّة، فإنّ كلّ مرتبة منها تتقوَّم بما فوقها؛ ما يعني أنّ العوالم الثلاثة مترتّبة وجودًا بالسبق واللحوق العلّيّ الرتبيّ؛ بحيث يشتمل الأعلى منها على كمال الأدنى وأشرف. فما من موجود ممكن مادّيّ أو مجرّد علويّ أو سفليّ، إلّا هو آية للواجب -تعالى- من جميع الوجوه؛ يحكي بما عنده من الكمال الوجوديّ كمال الواجب تعالى[1].

وأوّل ما ظهر وتجلّى في عالم الخلق، بوصفه مظهرًا لاسم الله الأعظم، هو الحقيقة المحمّديّة التي هي حقيقة الإنسان الكامل الجامعة لجميع أنواع الكمالات بالفعل، والمشتمل على جميع صفات الجمال والجلال بأشرف وأعلى ما يُمكن أن يحصل في عالم الوجود الإمكانيّ[2].

وقد وردت روايات كثيرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين عليهم السلام في بيان ذلك؛ منها:

- ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**أوّل ما خلق الله نوري**»[3].
- ما رواه جابر بن عبد الله، قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله: **أوّل شيء خلق الله -تعالى- ما هو؟ فقال: «نور نبيّك يا جابر، خلقه الله، ثمّ خلق منه كلّ خير**»[4].
- ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «**إنّ الله أوّل ما خلق، خلق محمّدًا وعترته الهداة المهتدين؛ فكانوا أشباح نور بين يدي الله...**»[5].

وغيرها روايات كثيرة[6] تُفيد أنّ نور النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام،

(1) انظر الطباطبائي، محمّد حسين: نهاية الحكمة، تصحيح وتعليق: عبّاس عليّ الزارعي السبزواري، ط14، قمّ المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، 1417هـ.ق، 379-380.

(2) انظر: الخميني، روح الله: مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، تقديم: جلال الدين الآشتياني، ط6، طهران، مؤسّسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره، 1386هـ.ش، ص56-57.

(3) الإحسائي، ابن أبي جمهور: عوالي اللئالي، تحقيق: مجتبى العراقي، ط1، قمّ المقدّسة، مطبعة سيّد الشهداء عليه السلام، 1405هـ.ق/ 1985م، ج4، ص99.

(4) المجلسي، محمّد باقر: بحار الأنوار، تحقيق: إبراهيم الميانجي؛ محمّد باقر البهبودي، ط2، بيروت، مؤسّسة الوفاء، 1403هـ.ق/ 1983م، ج15، ص24.

(5) م.ن، ح10، ص442.

(6) انظر: الكليني، الكافي، م.س، ج1، أبواب التاريخ، باب بلد النبي صلى الله عليه وآله، ح3، 5، 7، 9، ص440 - 442.

هو أوّل موجود صدر عن الله تعالى. وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة التي تعرّضت لذكْر حقيقة الأسماء وعرضها على الملائكة وإنباء آدم عليه السلام إيّاهم بها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[1]، وأنّ هذه الأسماء هي أسماء موجودات محجوبة تحت حجاب الغيب محفوظة عند الله -تعالى-، أنزل الله -سبحانه- كلّ اسم في العالم بخيرها وبركتها، واشتقّ كلّ ما في السماوات والأرض من نورها وبهائها: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[2]، وأنّهم على كثرتهم وتعدّدهم لا يتعدّدون تعدّد الأفراد، ولا يتفاوتون تفاوت الأشخاص، وإنّما يدور الأمر هناك مدار المراتب والدرجات. ونزول الاسم من عند هؤلاء إنّما هو بهذا القسم من النزول[3].

وإلى هذه الحقيقة التكوينيّة يشير قوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[4]؛ بمعنى أنّ الرسول دنا في مرتبته الوجوديّة وقربه من الله، فتدلّى وتعلّق بها، بنحو لم يسبقه أحد إليها ولا يلحقه أحد إليها. وهذا هو المقام الذي هو نهاية مراتب الإنسان الكامل، الذي لا يُمكن أن تكون فوقه مرتبة ولا مقام[5].

(1) سورة البقرة، الآيات 30-33.
(2) سورة الحجر، الآية 21.
(3) انظر: الطباطبائي، محمّد حسين: الميزان في تفسير القرآن، لا.ط، قمّ المقدّسة، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، لا.ت، ج1، ص116-118.
(4) سورة النجم، الآيتان 8-9.
(5) انظر: الآملي، حيدر: جامع الأسرار ومنبع الأنوار، تصحيح وتقديم: هنري كوربان؛ عثمان إسماعيل يحيى، ترجمة: جواد الطباطبائي، ط2، شركت انتشارات علمى وفرهنكى وابسته به وزارت فرهنك وآموزش عالى؛ انجمن ايرانشناسى فرانسه، لا.م، 1368هـ.ش، ص605.

وفي الروايات ما يشير إلى هذه الحقيقة؛ منها: ما روي عن رسول الله ﷺ، قال: «... **لمّا عرج بي إلى السماء... فلمّا انتهيت إلى حجب النور، قال لي جبرئيل: تقدّم يا محمّد، وتخلَّفَ عنّي، فقُلت: يا جبرئيل في مثل هذا الموضع تُفارقني؟! فقال: يا محمّد إنّ انتهاء حدّي الَّذي وضعني الله عزّ وجلّ فيه إلى هذا المكان، فإنْ تجاوزتُهُ احترقت أجنحتي بتعدّي حدود ربّي جلّ جلاله، فزخّ (فزجّ) بي في النور زخّة (زجّة) حتّى انتهيت إلى حيث ما شاء الله من علوّ ملكه**»[1].

وبناءً على ما تقدَّم يظهر أنّ الإمـام المـزُور عليه السلام هو العلّة الفاعليّة والواسطة في الفيض لكامل نشآت الوجود ومراتبه ومظاهره بإذن الله تعالى[2].

ثانيًا: الارتباط التكوينيّ الفطريّ بين الزائر والإمام المَزور عليه السلام:

(1) الصدوق، محمّد بن عليّ: عيون أخبار الرضا، تعليق: حسين الأعلميّ، ط1، بيروت، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، 1404هـ.ق/ 1984م، ج1، ص237.

(2) يذهب كبار فقهاء الإماميّة، فضلًا عن فلاسفتها وعرفائها إلى هذه الحقيقة؛ منهم:
- الشيخ محمّد حسين النائينيقدس سره؛ حيث يقول: «الولاية التكوينيّة التي هي عبارة عن تسخير المكوّنات تحت إرادتهم ومشيّتهم بحول الله وقوّته، كما ورد في زيارة الحجّة أرواحنا له الفداء بأنّه ما من شيء إلّا وأنتم له السبب، وذلك لكونهم عليهم السلام مظاهر أسمائه وصفاته تعالى فيكون فعلهم فعله وقولهم قوله، وهذه المرتبة من الولاية مختصّة بهم وليست قابلة للإعطاء إلى غيرهم لكونها من مقتضيات ذواتهم النوريّة ونفوسهم المقدّسة التي لا يبلغ إلى دون مرتبتها مبلغ»؛ الآملي، محمّد تقي: المكاسب والبيع (تقرير بحث الميرزا النائيني)، قمّ المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المقدّسة، ج2، ص332).
- السيد أبو القاسم الخوئيّقدس سره: «لا شبهة في ولايتهم على المخلوق بأجمعهم؛ كما يظهر من الأخبار؛ لكونهم واسطة في الإيجاد، وبهم الوجود، وهم السبب في الخلق، إذ لولاهم لما خلق الناس كلّهم، وإنّما خُلقوا لأجلهم، وبهم وجودهم، وهم الواسطة في الإفاضة، بل لهم الولاية التكوينيّة لما دون الخالق. فهذه الولاية نحو ولاية الله -تعالى- على الخلق ولاية إيجاديّة، وإن كانت هي ضعيفة بالنسبة إلى ولاية الله -تعالى- على الخلق« (التوحيدي، محمّد عليّ: مصباح الفقاهة (تقرير أبحاث السيّد أبو القاسم الخوئي)، قمّ المقدّسة، المطبعة العلميّة، ج3، ص279-280).
- الإمام روح الله الخمينيقدس سره: «إنّ الأحاديث الواردة عن أصحاب الوحي والتنزيل في بدء خلقهم عليهم السلام، وطينة أرواحهم، وأنّ أوّل الخلق روح رسول الله وعليّ صلّى الله عليهما وآلهما، أو أرواحهم، إشارة إلى تعيّن روحانيّتهم الّتي هي المشيئة المطلقة والرحمة الواسعة تعيّنًا عقليًّا؛ لأنّ أوّل الظهور هو أرواحهم عليهم السلام... ونور الأنوار؛ هو الفيض المنبسط والوجود المطلق الّذي منه الحقائق العقليّة وغيرها والعوالم الصاعدة والنازلة... الّذي قد عرفت أنّه الحقيقة المحمّديّة صلى الله عليه وآله والعلويّة عليه السلام بنحو الوحدة واللاتعيّن« (الخميني، مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، م.س، ص61-63). و«أمّا الاسم الأعظم، بحسب الحقيقة العينيّة؛ فهو الإنسان الكامل خليفة الله في العالمين؛ وهو الحقيقة المحمّديّة صلى الله عليه وآله... وهذه البنية المسمّاة بمحمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، النازلة من عالم العلم الإلهيّ إلى عالم الملك، لخلاص المسجونين في سجن عالم الطبيعة مجملة تلك الحقيقة الكلّيّة، وانطوى فيها جميع المراتب انطواء العقل التفصيليّ في العقل البسيط الإجماليّ« (الخميني، روح الله: شرح دعاء السحر، ط1، طهران، مؤسّسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخمينيقدس سره، 1416هـ.ق/ 1374هـ.ش، ص78).

إنّ التدبير الإلهيّ بمظهريه التكوينيّ والتشريعيّ هو تدبير محكم صادر عن مدبّر عالم لا يعزب عنه شيء: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾[1]، وحكيم لا يفعل جزافًا: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[2]، وقادر مطلق: ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾[3]، وعزيز ممتنع من أن يُغلَب: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾[4]؛ فله -تعالى- أن يحكم في خلقه بما يشاء ويريد، تكوينًا وتشريعًا، بمقتضى ربوبيّته ومالكيّته؛ لغرض إيصال كلّ مخلوق إلى كماله المطلوب: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾[5].

وشاء الله أن يُوجِد الإنسان بتدبير تكوينيّ مفطورًا على حبّ الكمال والسعي إليه، والنفور من النقص ودفعه عنه، لغرض إيجاد المحرّك الذاتي لديه في تلقّي الهداية التشريعيّة؛ بغية إيصاله إلى الكمال عن اختيار منه: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[6]، و﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾[7]؛ لهذا كان الإنسان بمقتضى فطرته منجذبًا نحو مظاهر الكمال موليًّا وجهته، ومتباعدًا عن مظاهر النقص ومتبرّئًا منه.

ولكنّ هداية الفطرة وحدها غير كافية في الكشف عن معالم طريق الوصول إلى الكمال، حتّى تتولّى هذه الوجهة، وعن موانع الوصول حتّى تتبرّأ منها وتحيد عنها؛ لأنّها إذا خلّيت ونفسها لم تنفكّ من أن تتنبّه شاهدة على فقرها وحاجتها في نفسها إلى أمر خارج عنها؛ لهذا يحتاج

(1) سورة الحديد، الآية 3.
(2) سورة الأنبياء، الآية 16.
(3) سورة آل عمران، الآية 189.
(4) سورة الحجّ، الآية 74.
(5) سورة الرعد، الآية 2.
(6) سورة الأعلى، الآيتان 2-3.
(7) سورة الشمس، الآيتان 7-8.

الإنسان إلى متمِّم من خارج الفطرة؛ ما يحتّم عليه في سيره الوجوديّ أن يتوسّل ويتولّى كلّ ما من شأنه أن يوصله إلى الكمال ويُعرِض ويتبرّأ من كلّ ما يجلب عليه النقص ويحول دون وصوله إلى كماله المنشود: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1]. وقد تعلّق هذا الإنسان فطريًّا بالدين؛ لما وجد فيه من سبيل يوصله إلى تحقيق مقتضى فطرته وقوام حياته الحقيقيّة؛ وهو الكمال[2]: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[3].

وهذا التعلّق الفطريّ للإنسان بالدين؛ إنّما هو بمقتضى انجذابه إلى حقيقته التكوينيّة التي جسّدها الإنسان الكامل في ممارسته التشريعيّة المتحقّقة بحقيقة العبوديّة؛ بوصفه ترجمة خارجيّة واقعيّة للدين موصلة للإنسان إلى مبتغاه: ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[4]؛ وهو التحقّق بحقيقة العبوديّة، كما حقّقها الإنسان الكامل في ممارسته التشريعيّة[5].

ومن هنا، تغدو مناسك الدين ومعالمه التشريعيّة التي صدح بها الأنبياء والرسل والأوصياء عليهم السلام وطبّقوها في عالم التشريع، دورة كاملة من السير العبوديّ التكوينيّ الذي يسير به العبد سيرًا ولائيًّا تكوينيًّا من موطن نفسه إلى قرب ربّه، متبرّئًا من كلّ ما يكدِّر صفو القرب. ومثال على ذلك، «ما شرّعه النبيّ صلى الله عليه وآله من نسك الحجّ المشتمل على الإحرام والوقوف بعرفات، ومبيت المشعر، والتضحية، ورمي الجمرات، والسعي بين الصفا والمروة، والطواف، والصلاة بالمقام؛ تحكي قصّة إبراهيم،

(1) سورة البقرة، الآية 257.
(2) لمزيد من التفصيل في حقيقة الفطرة ومدركاتها، انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص44–45؛ ج2، ص111–112، 131–132؛ ج5، ص311–313؛ ج10، ص298–299؛ ج13، ص92–93؛ ج16، ص178–179.
(3) سورة الروم، الآية 30.
(4) سورة المائدة، الآية 35.
(5) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج5، ص328.

وتمثّل مواقفه ومواقف أهله ومشاهدهم، ويا لها من مواقف طاهرة إلهيّة، القائد إليها جذبة الربوبيّة، والسائق نحوها ذلّة العبوديّة. والعبادات المشروعة -على مشرّعيها أفضل السلام- صور لمواقف الكُمَّلين من الأنبياء عليهم السلام من ربّهم، وتماثيل تحكي عن مواردهم ومصادرهم في مسيرهم إلى مقام القرب والزلفى؛ كما قال -تعالى-: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: 21)؛ وهذا أصل. وفي الأخبار المبيّنة لحكم العبادات وأسرار جعلها وتشريعها شواهد كثيرة على هذا المعنى، يعثر عليها المتتبّع البصير[1]»[2].

ثالثًا: الارتباط التكوينيّ الوجوديّ بين الزائر والإمام المَزور عليه السلام:

تأسيسًا على ما تقدّم تتكشّف خصوصيّة العلاقة القائمة بين الزائر والمزور (الإمام المعصوم عليه السلام)؛ وأنّها علاقة استمداد وجوديّ تكوينيّ تأخذ بيد الزائر في طريق الهداية بغية إيصاله إلى كماله. ومن مظاهر هذا المدد الوجوديّ للزائر من الحقيقة الوجوديّة للمَزور عليه السلام؛ الآتي:

1. الهداية الملكوتيّة الباطنيّة للموجودات إلى الله تعالى:

إنّ الهداية الصادرة من الإمام عليه السلام بوصفه إنسانًا كاملًا هي نوع هداية واقعة بأمر الله -تعالى-، على ما صرّح به القرآن نفسه في أكثر من مورد؛ قال -تعالى-: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا

(1) يمكن مراجعة كتاب علل الشرائع للشيخ الصَّدوق قدس سره وقد جمع فيه الروايات المبيّنة لوجه الحكمة أو العلّة التي شرّعت من أجلها تشريعات الدين. (انظر: ابن بابويه، محمّد بن عليّ بن الحسين (الصّدوق): علل الشرائع (2/2)، تقديم: محمّد صادق بحر العلوم، لا.ط، النجف الأشرف، المكتبة الحيدريّة، 1385هـ.ق/ 1966م).

(2) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص298-299.

عَٰبِدِينَ﴾[1]، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[2]، وكشف عن أنّ هذا الأمر هو وجه آخر لعالم الخلق؛ سمّاه الملكوت: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾[3]؛ وهو الذي يواجهون به الله -سبحانه-، عالم طاهر مطهّر من قيود الزمان والمكان، لا يخلو منه زمان من الأزمنة، وعصر من الأعصار، خال من التغيّر والتبدّل؛ وهو المراد بكلمة «كن» الذي ليس إلّا وجود الشيء العيني، وهو قبال الخلق الذي هو وجه آخر من وجهي الأشياء، فيه التغيّر والتدريج والانطباق على قوانين الحركة والزمان؛ قال -تعالى-: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[4]، ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾[5].

وبناءً عليه، فالإمام عليه السلام هادٍ يهدي بأمرٍ ملكوتي يصاحبه، وله نحو ولاية باطنيّة على الناس في أعمالهم، وهدايتها بإيصالها إلى المطلوب بأمر الله؛ فكما كان الإمام عليه السلام يسوقهم إلى سبيل السعادة في ظاهر الحياة الدنيا؛ فإنّه يسوقهم إليها في باطنها وهو الحياة الآخرة[6]: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[7].

وقد أشارت مجموعة من الروايات إلى هذه الحقيقة؛ منها:

- ما وري عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام أنّه قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: اكتب ما أُملي عليك. قال: يا نبيّ الله! أتخاف عليَّ النسيان؟ قال صلى الله عليه وآله: لستُ أخاف عليك النسيان وقد دعوت الله لك أن**

(1) سورة الأنبياء، الآيتان 72-73.
(2) سورة السجدة، الآية 24.
(3) سورة الأنعام، الآية 75.
(4) سورة يس، الآيتان 82-83.
(5) سورة القمر، الآية 50.
(6) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص270-276.
(7) سورة الفاتحة، الآية 6.

يحفظك ولا يُنسيك، ولكن اكتب لشركائك. قال: قلت: ومَن شركائي يا نبيّ الله؟ قال: الأئمّة من ولدك، بهم تُسقى أُمّتي الغيث، وبهم يُستجاب دعاؤهم، وبهم يصرف الله عنهم البلاء، وبهم تنزل الرحمة من السماء، وأومى إلى الحسن وقال: هذا أوّلهم، وأومى إلى الحسين وقال: الأئمّة من ولده»[1].

- ما رواه أبو حمزة، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: **أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال: «لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت»**[2].

- ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: **«أي والذي بعثني بالنبوّة إنّهم يستضيئون بنوره [أي الإمام المهديّ عليه السلام]، وينتفعون بولايته في غيبته؛ كانتفاع الناس بالشمس، وإنْ تجلّلها السحاب»**[3].

2. **الشهادة على الأعمال:**

بناءً على ما تقدّم من كون الإمام المعصوم عليه السلام يهدي الخلق بهداية ملكوتيّة؛ فكلّ ما يتعلّق به أمر الهداية - وهو القلوب والأعمال - فللإمام عليه السلام باطنه وحقيقته، ووجهه الأمريّ حاضر عنده غير غائب عنه، ومن المعلوم أنّ القلوب والأعمال؛ كسائر الأشياء في كونها ذات وجهين؛ فالإمام عليه السلام تحضر عنده وتلحق به أعمال العباد، خيرها وشرّها، وهو المهيمن على السبيلين جميعًا، سبيل السعادة وسبيل الشقاوة[4].

وإلى ذلك تشير الآيات التي تحدّثت عن شهداء الأعمال على العباد في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ

(1) الطوسي، محمّد بن الحسن: الأمالي، ط1، قم المقدّسة، مؤسّسة البعثة؛ دار الثقافة، 1414هـ.ق، مجلس 15، ح46، ص441.

(2) الكليني، الكافي، م.س، ج1، كتاب الحجّة، باب أنّه لو لم يبقَ في الأرض إلّا رجلان لكان أحدهما الحجّة، ح10، ص179.

(3) الصدوق، محمّد بن عليّ بن الحسين: كمال الدين وتمام النعمة، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفّاري، لا.ط، قمّ المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المقدّسة، 1405هـ.ق/ 1363هـ.ش، باب 23، ح3، ص253.

(4) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص276.

عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1]، ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾[2]، ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[3]، ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[4]، ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[5]، ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾[6].

وهو ما بيّنته الروايات الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، ولا سيّما الروايات التفسيريّة؛ منها:

- ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾، قال: «**نزلت في أمّة محمّد صلى الله عليه وآله خاصّة، في كلّ قرن منهم إمام منّا شاهد عليهم، ومحمّد صلى الله عليه وآله شاهد علينا**»[7].

- ما رواه بريد العجلي، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾، قال: «**نحن الأمّة الوسط، ونحن شهداء الله تبارك وتعالى على خلقه، وحججه في أرضه (....) فرسول الله صلى الله عليه وآله الشهيد علينا بما بلغنا عن الله -تبارك وتعالى-، ونحن الشهداء على الناس، فمن صدق يوم القيامة صدّقناه ومن كذب كذّبناه**»[8].

- ما رواه يعقوب بن شعيب، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله

(1) سورة البقرة، الآية:143
(2) سورة النحل، الآية 84.
(3) سورة المائدة، الآية 117.
(4) سورة النساء، الآية 41.
(5) سورة التوبة، الآية 105.
(6) سورة الإسراء، الآية 71.
(7) الكليني، الكافي، م.س، ج1، كتاب الحجّة، باب في أنّ الأئمّة عليهم السلام شهداء الله عزّ وجلّ على خلقه، ح1، ص190.
(8) م.ن، ح2.

-عزّ وجلّ-: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾، قال: «**هم الأئمّة**»[1].

- ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «ما من مؤمن يموت أو كافر يُوضَع في قبره حتّى يعرض عمله على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى أمير المؤمنين (صلوات الله عليهما)، وهلم جرًّا إلى آخر من فرض الله طاعته، فذلك قوله: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾»[2].

وغيرها من الروايات الكثيرة الواردة بصدد بيان هذه الحقيقة[3].

3. الشفاعة:

صرّح القرآن الكريم بإمكانيّة الشفاعة من غيره -تعالى- عن إذنه ورضاه، ونفعها في المشفوع لهم في الآخرة؛ وذلك في بعض الآيات التي تحدّثت عن الشفاعة؛ منها: قوله تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾[4]، ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾[5]، ﴿ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴾[6].

ويمكن تقريب مسألة الشفاعة وجوديًّا بأنّ كلّ إنسان في حياته الدنيويّة يتحصّل لديه من أفعاله الصادرة عنه هيئة نفسانيّة تستبع حالة من السعادة التي تقتضيها فطرته وخلقته الإنسانيّة، أو الشقاء الذي تتنفّر

(1) الكليني، الكافي، م.س، ج1، كتاب الحجّة، باب عرض الأعمال على النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام، ح2، ص219.
(2) القمّي، عليّ بن إبراهيم: تفسير القمّي، تصحيح وتعليق: طيّب الموسوي الجزائري، ط3، قمّ المقدّسة، مؤسّسة دار الكتاب للطباعة والنشر، 1404هـ.ق، ج1، تفسير سورة التوبة، ص304.
(3) انظر: الكليني، الكافي، م.س، ج1، ص191؛ ص219-220؛ الصفّار، محمّد بن الحسن بن فرّوخ: بصائر الدرجات، تحقيق: حسن كوچه باغي، لا.ط، طهران، مطبعة الأحمدي؛ منشورات الأعلمي، 1404هـ.ق/ 1362هـ.ش، ج2 (القسم الثاني)، باب 12، ح1-6، ص102-103؛ ج9 (القسم التاسع)، باب 4، ح1-17، ص444446؛ باب 5، ح1-11، ص447-448؛ باب 6، ح1-11، ص449-451؛ باب 7، ح1-11، ص451-454؛ باب 8، ح1-3، ص454-455؛ باب 9، ح1-7، ص455-457؛ باب 10، ح1-3، ص457.
(4) سورة البقرة، الآية 255.
(5) سورة مريم، الآية 78.
(6) سورة طه، الآية 109. وانظر: سورة يونس، الآية 3؛ سورة الشعراء، الآيتان 100-101؛ سورة الزخرف، الآية 86؛ سورة سبأ، الآية 23؛ سورة النجم، الآية 26.

عنه فطرته وخلقته، ومن خلال تكرّر هذه الأفعال تتحصّل لديه ملكة راسخة تستتبع صورة سعيدة أو شقيّة للنفس، بحيث تلتذّ النفس السعيدة بآثارها؛ لأنّها كمالات ملائمة لها في وجودها الفعلي، وملائمة لها في خلقتها واستعداداتها بما هي إنسان، وتتألّم النفس الشقيّة بآثارها؛ لأنّها نقص تتنفّر منه في خلقتها واستعداداتها بما هي إنسان، وإن كانت ملائمة لها في وجودها الفعليّ. أمّا النفوس الناقصة في سعادتها وشقاوتها، فهي الإنسان السعيد ذاتًا الشقيّ فعلًا، ممّن له نفسٌ صورتها سعيدة بالاعتقاد الحقّ الثابت غير أنّها ملوّثة بهيئات شقيّة رديّة من الذنوب والآثام التي اكتسبتها عن اختيار حين تعلّقها بالبدن الدنيويّ، وهي أمور قسريّة غير ملائمة لذاته؛ ولأنّ القسر لا يدوم، فهذه النفس سترزق التطهّر منها في برزخ أو قيامة على حسب قوّة رسوخها في النفس، وكذلك الأمر فيما للنفس الشقيّة من الهيئات العارضة السعيدة؛ فإنّها ستُسلب عنها وتزول سريعًا أو بطيئًا. وبناءً على أنّ الكمال الوجوديّ مختلف بحسب مراتب الكمال والنقص والشدّة والضعف وهو التشكيك خاصّة في النور المجرّد، فلهذه النفوس مراتب مختلفة في القرب والبعد من مبدأ الكمال ومنتهاه في سيرها الارتقائيّ وعودها إلى ما بدأت منها؛ وهي بعضها فوق بعض، وهذه شأن العلل الفاعليّة (بمعنى ما به) ووسائط الفيض؛ فلبعض النفوس، وهي النفوس التامّة الكاملة؛ كنفوس الأنبياء عليهم السلام، وبخاصّة من هو في أرقى درجات الكمال والفعليّة، وساطةٌ في زوال الهيئات الشقيّة الرديّة القسريّة من نفوس الضعفاء، ومن دونهم من السعداء إذا لزمتها قسرًا. وهذه هي الشفاعة الخاصّة بأصحاب الذنوب[1].

وتشير إلى هذه الحقيقة مجموعة من الروايات الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام؛ منها:

- ما رواه الحسين بن خالد، عن الرضا عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن أمير

(1) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص184.

المؤمنين عليه السلام، قال: **قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من لم يؤمن بحوضي، فلا أورده الله حوضي، ومن لم يؤمن بشفاعتي، فلا أناله الله شفاعتي، ثمّ قال صلى الله عليه وآله: إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي، فأمّا المحسنون منهم فما عليهم من سبيل.** قال الحسين بن خالد: فقلت للرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله، فما معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾، قال عليه السلام: **لا يشفعون إلّا لمن ارتضى الله دينه**[1].

- ما رواه عبيد بن زرارة قال: سُئِل أبو عبد الله عليه السلام عن المؤمن هل له شفاعة؟ قال: **نعم.** فقال له رجل من القوم: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعة محمّد صلى الله عليه وآله يومئذ؟ قال: **نعم، إنّ للمؤمنين خطايا وذنوبًا وما من أحد إلّا يحتاج إلى شفاعة محمّد يومئذ**[2].
- ما نقله العيّاشي في تفسيره، عن بعض أصحابنا، عن أحدهما (عليهما)، في قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾، قال: **هي الشفاعة**[3].
- ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**فأمّا في يوم القيامة، فإنّا وأهلنا نجزي عن شيعتنا كلّ جزاء، ليكوننّ على الأعراف بين الجنّة والنّار محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام والطيّبون من آلهم، فنرى بعض شيعتنا في تلك العرصات ممّن كان منهم مقصّرًا في بعض شدائدها، فنبعث عليهم خيار شيعتنا كسلمان، والمقداد، وأبي ذر، وعمّار، ونظرائهم في العصر الذي يليهم، وفي كلّ عصر، إلى يوم القيامة، فينقضّون عليهم؛ كالبزاة والصقورة، ويتناولونهم كما تتناول البزاة والصقورة صيدها، فيزفّونهم إلى الجنّة زفًا**»[4].

(1) ابن بابويه، محمّد بن عليّ بن الحسين (الصدوق): عيون أخبار الرضا عليه السلام، تصحيح وتعليق وتقديم: حسين الأعلمي، ط1، بيروت، مؤسّسة الأعلمي، 1404هـ.ق/ 1984م، باب 11، ح35، ص124-125.

(2) العيّاشي، محمّد بن مسعود: تفسير العيّاشي، تحقيق وتصحيح وتعليق: هاشم الرسولي المحلّاتي، لا.ط، طهران، المكتبة العلميّة الإسلاميّة، لا.ت، ج2، تفسير سورة الإسراء، ح150، ص314.

(3) م.ن، ح148.

(4) المجلسي، محمّد باقر: بحار الأنوار، تحقيق: يحيى العابدي الزنجاني، ط2، بيروت، مؤسّسة الوفاء، 1403هـ.ق/ 1983م، ج8، ص338.

رابعًا: البُعد الوجوديّ لارتباط الزائر بالحقيقة الوجوديّة المقدّسة للإمام الحسين عليه السلام:

تأسيسًا على ما تقدّم يمكن مقاربة حقيقة الارتباط الوجودي ومظاهره بين الزائر للإمام الحسين عليه السلام والحقيقة الوجوديّة المقدّسة للإمام عليه السلام، من خلال ما ورد في نصوص الروايات والزيارات من إشارات تكشف عن هذا الارتباط، وشهادة الزائر بلسان الحال والقال للوجود القدسي للإمام عليه السلام بالآتي:

1. الهداية الذاتيّة:

ففي موقف الزيارة يشهد الزائر للإمام عليه السلام بوراثة النهج العبوديّ من الأنبياء والمرسلين والأئمّة السابقين عليهم السلام، والتحقّق به، وبالطهارة والقدسيّة والهداية الذاتيّة: «**السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ آدَمَ صَفْوَةِ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ نُوحٍ نَبِيِّ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ إبْراهِيمَ خَلِيلِ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ مُوسى كَلِيمِ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ عِيسى رُوحِ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ مُحَمَّدٍ حَبِيبِ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلامُ... أَشْهَدُ أَنَّكَ كُنْتَ نُورًا فِي الأَصْلابِ الشَّامِخَةِ وَالأَرْحامِ المُطَهَّرَةِ لَمْ تُنَجِّسْكَ الجاهِلِيَّةُ بِأَنْجاسِها وَلَمْ تُلْبِسْكَ مِنْ مُدْلَهِمَّاتِ ثِيابِها، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ مِنْ دَعائِمِ الدِّينِ وَأَرْكانِ المُؤْمِنِينَ وَأَشْهَدُ أَنَّكَ الإمامُ البَرُّ التَّقِيُّ الرَّضِيُّ الزَّكِيُّ الهادِي المَهْدِيُّ**»[1].

وهذه الهداية الذاتيّة هي التي عبّر عنها القرآن الكريم في مجموعة من الآيات بالروح التي هي من الأمر الإلهيّ؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾[2]،

(1) الطوسي، محمّد بن الحسن: مصباح المتهجّد، ط1، بيروت، مؤسّسة فقه الشيعة، 1411هـ.ق/ 1991م، ص720-721.

(2) سورة الشورى، الآية 52.

﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾[1]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[2]، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾[3]؛ فأفعال الإمام خيرات يهتدي إليها لا بهداية من غيره، بل باهتداء من نفسه بتأييد إلهيّ، وتسديد ربّاني؛ بناءً على أنّ المصدر المُضاف ﴿ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ يدلّ على الوقوع[4].

وقد بيّنت الروايات الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام حقيقة هذه الهداية؛ منها:

- ما رواه أبو بصير، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾؟ قال: «**خلقٌ أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو مع الأئمّة، وهو من الملكوت**»[5]. وفي رواية أخرى: «**خلقٌ أعظم من جبرئيل وميكائيل، لم يكن مع أحد ممّن مضى، غير محمّد صلى الله عليه وآله؛ وهو مع الأئمّة يسدّدهم، وليس كلّ ما طلب وجد**»[6].
- ما روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ أيّدنا بروح منه مقدّسة مطهّرة، ليست بملَك، لم تكن مع أحد ممّن مضى إلّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي مع الأئمّة منّا، تسدّدهم وتوفّقهم، وهو عمود من نور بيننا وبين الله عزّ وجلّ**»[7].
- ما رواه جابر الجعفي، عن الإمام أبي جعفر عليه السلام، قال: «**سألتُه عن علم العالم؟ فقال لي: يا جابر إنّ في الأنبياء والأوصياء خمسة**

(1) سورة البقرة، الآية 87.
(2) سورة الإسراء، الآية 85.
(3) سورة الأنبياء، الآية 73.
(4) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص274.
(5) الكليني، الكافي، م.س، ج1، كتاب الحجّة، باب الروح التي يسدّد الله بها الأئمّة عليهم السلام، ح4، ص273.
(6) م.ن، ح4.
(7) الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، م.س، باب 46، ح1، ص217.

أرواح: روح القدس، وروح الإيمان، وروح الحياة، وروح القوّة، وروح الشهوة. فبروح القدس يا جابر عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى. ثمّ قال: يا جابر إنّ هذه الأربعة أرواح يصيبها الحدثان، إلّا روح القدس، فإنّها لا تلهو ولا تلعب»[1].

وغيرها من الروايات الواردة في هذا الصدد[2].

2. الهداية الملكوتيّة الباطنيّة للموجودات إلى الله تعالى:

ففي زيارة الإمام الحسين عليه السلام يشهد الزائر للإمام عليه السلام بالهداية الملكوتيّة الباطنيّة للموجودات إلى الله تعالى: «**بِكُمْ فَتَحَ الله وَبِكُمْ يَخْتِمُ الله، وَبِكُمْ يَمْحُو ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ، وَبِكُمْ يَفُكُّ الذُّلَّ مِنْ رِقابِنا، وَبِكُمْ يُدْرِكُ الله تِرَةَ كُلِّ مُؤْمِنٍ يُطْلَبُ بِها، وَبِكُمْ تُنْبِتُ الأَرضُ أَشْجارَها، وَبِكُمْ تُخْرِجُ الأَرضُ ثمارَها، وَبِكُمْ تُنْزِلُ السَّماءُ قَطْرَها وَرِزْقَها، وَبِكُمْ يَكْشِفُ الله الكَرْبَ، وَبِكُمْ يُنَزِّلُ الله الغَيْثَ، وَبِكُمْ تُسَبِّحُ الأَرضُ الَّتي تَحْمِلُ أَبْدانَكُمْ وَتَسْتَقِرُّ جِبالُها عَنْ مَراسِيها، وإِرادَةُ الرَّبِّ في مَقادِيرِ أُمورِهِ تَهْبِطُ إِلَيْكُمْ وَتَصْدُرُ مِنْ بُيُوتِكُمْ، وَالصَّادِرُ عَمَّا فُصِّلَ مِنْ أَحْكامِ العِبادِ**»[3].

وهو ما أشار إليه القرآن الكريم من أنّ هدايتهم مصحوبة بالأمر الإلهي، وهذا الأمر هو عالم الملكوت؛ وهو الوجه الباطني لعالم الملك؛ وقد تقدّم الكلام فيه.

3. الشهادة على أعمال العباد:

حيث يشهد الزائر للإمام عليه السلام بالشهادة على أعمال العباد، ويريد إشهاده على حاله شهادة تحمّل يؤدّيها إليه عند الله -تعالى-:

(1) الكليني، الكافي، م.س، ج1، كتاب الحجّة، باب فيه ذكر الأرواح التي في الأئمّة عليهم السلام، ح2، ص272.

(2) انظر: الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، باب 16، ح1-15، ص475-478؛ الكليني، الكافي، م.س، ج1، كتاب الحجّة، باب فيه ذكر الأرواح التي في الأئمّة عليهم السلام، ح1-3، ص271-272؛ باب الروح التي يسدّد الله بها الأئمّة عليهم السلام، ح1-6، ص273-274.

(3) الكليني، الكافي، م.س، ج4، أبواب الزيارات، باب زيارة قبر أبي عبد الله الحسين بن عليّ عليهما السلام، ح2، ص576-577.

«اُكْتُبْ لي عِنْدَكَ ميثاقًا وَعَهْدًا إنِّي أَتَيْتُكَ مُجَدِّدًا الميثاقَ، فَاشْهَدْ لي عِنْدَ رَبِّكَ، إنَّكَ أَنْتَ الشَّاهِدُ»[1]. «وَأَشْهَدُ أَنَّكَ تَسْمَعُ الكَلامَ وَتَرُدُّ الجَوابَ»[2].

4. الشفاعة:

حيث يشهد الزائر للإمام عليه السلام بمقام الشفاعة، ويريد منه استنقاذه من العوالق والموانع التي تحول بينه وبين ما ينزع إليه في أصل خلقته من نيل الكمال: «أَشْهَدُ أَنَّكَ عَلى بَيِّنَةٍ منْ رَبِّكَ، جِئْتُ مُقرًّا بالذُّنُوب لتَشْفَعَ لي عِنْدَ رَبِّكَ يا ابْنَ رَسُول الله»[3]. «أُودِعُكَ شَهادَةً منِّي لَكَ تُقَرِّبُني إلَيْكَ في يَوْم شَفاعَتكَ، أَشْهَدُ أَنَّكَ قُتلْتَ وَلَمْ تَمُتْ، بَلْ برَجاء حَياتكَ حَييَتْ قُلُوبُ شيعَتكَ، وَبضياء نُورِكَ اهْتَدى الطَّالبُونَ إلَيْكَ، وأَشْهَدُ أَنَّكَ نُورُ الله الَّذي لَمْ يُطْفَأْ وَلا يُطْفَأُ أَبَدًا، وأَنَّكَ وَجْهُ الله الّذي لَمْ يُهْلَكْ وَلايُهْلَكُ أَبَدًا، وأَشْهَدُ أَنَّ هذه التُّرْبَةَ تُرْبَتُكَ، وَهذا الحَرَمَ حَرَمُكَ، وَهذا المَصْرَعَ مَصْرَعُ بَدَنكَ، لا ذَليلَ وَالله مُعزُّكَ، وَلا مَغْلُوبَ وَالله ناصرُكَ؛ هذه شَهادَةٌ لي عِنْدَكَ إلى يَوْم قَبْض رُوحي بحَضْرَتكَ»[4]. وهو يطلب من الله تعالى بحضرة الإمام عليه السلام أن يرزقه شفاعته عليه السلام وملازمة نهجه العبوديّ: «اللّهُمَّ ارْزُقْني شَفاعَةَ الحُسَيْن يَوْمَ الوُرُود وَثَبِّتْ لي قَدَمَ صدْق عِنْدَكَ مَعَ الحُسَيْن وَأَصْحاب الحُسَيْن الَّذينَ بَذَلُوا مُهَجَهُمْ دُونَ الحُسَيْن عَليه السَّلامُ»[5].

(1) الكليني، الكافي، م.س، ج4، أبواب الزيارات، باب القول عند قبر أبي الحسن موسى وأبي جعفر الثاني وما يجزئ من القول عند كلّهم عليهم السلام، ح3، ص578.

(2) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج98، ص330.

(3) الكليني، الكافي، م.س، ج4، باب القول عند قبر أبي الحسن موسى وأبي جعفر الثاني وما يجزئ من القول عند كلّهم عليهم السلام، ح3، ص578.

(4) الكفعمي، إبراهيم: جُنّة الأمان الواقية وجَنّة الإيمان الباقية (مصباح الكفعمي)، ط3، بيروت، مؤسّسة الأعلمي، 1403هـ.ق/ 1983م، ص498-499.

(5) الطوسي، مصباح المتهجّد، م.س، ص776.

خاتمة:

إنّ الحثّ الوارد في سيرة النبيّ ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام العمليّة والقوليّة، بخصوص المواظبة على زيارة المراقد المقدّسة للأئمّة المعصومين عليهم السلام، ولا سيّما مرقد الإمام الحسين عليه السلام، يكشف عن دور هذا الفعل (الزيارة)؛ بما يحويه من خصوصيّات أفعاليّة ومقاليّة، في تصحيح وجهة الزائر وإمداده في سيره الوجودي نحو مقام القرب الإلهيّ.

ومن هنا، تغدو الزيارة منسكًا وشعيرة عباديّة تشريعيّة؛ شأنها شأن المناسك والشعائر العباديّة التشريعيّة الأخرى، في اتّكائها على حقيقة تكوينيّة يتغيّى الإسلام منها إيصال الناس إليها وتحقيقها فيهم، وهي التحقّق بالعبوديّة؛ استلهامًا واستمدادًا وجوديًّا ممّن تحقّق بأعلى مراتبها وأكملها؛ وهم الأئمّة المزورون عليهم السلام: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[1].

وفي الختام، تجدر الإشارة إلى خصوصيّات الزيارة الزمانيّة والمكانيّة التي ورد الحثّ عليها في الروايات والترغيب فيها؛ كزيارة الإمام الحسين عليه السلام في أوقات مخصوصة، وخصوصيّة ارتباطها بالفعل الزماني والمكاني الذي صدر عن الإمام المـزُور عليه السلام، وأثر ذلك في الاستمداد الوجوديّ من حقيقة فعله الذي ظهر في صورته المـُلكيّة في عالم الدنيا فعل ثورة وتضحية وفداء وشهادة، وهو في حقيقته الباطنيّة الملكوتيّة تحقّقًا بحقيقة العبوديّة.

وهذا جانب من البُعد الوجوديّ للزيارة يحتاج إلى مزيد تأمّل وبحث.

(1) سورة الحجّ، الآية 32.